كتاب الهلال

العالم

من منظور غربي

د. عبد الوهاب المسيري



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن
دار الهلال
الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة **مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير **مصطفى نبيل**

مدير التحرير **عادل عبدالصمد**

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ ش محمد عز العرب

ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

فاكس : FAX -3625469

العدد ٦٠٢ - ذو القعدة - فبراير ٢٠٠١

NO-602-FE-2001

عنوان البريد الإلكتروني : darhilal@idsc . gov . eg

العالم من منظور غربى

بقلم

د. عبد الوهاب محمد المسيرى

الغلاف للفنان

محمد ابو طالب

مقـــدمة

التحـيز ، كمـا جـاء فى المعاجم ، هـو الانضمـام والموافـقة فى الرأى . وقضيـة التحيز فى المنهج والمصطلح هى إشكاليـة مـهمـة تواجـه أى دارس فى الشـرق والغرب والشـمال والجنوب ، ولكنهـا تواجهنا فى العالم الثالث بحدة . فنحن ننشأ فى بيئة حـضارية وثقافية لها نماذجها الحضارية والمعرفية المختلفة النابعة من تراثنا الحـضـارى ومن واقـعنا التـاريخى ، ولكننا نُواجَه بنمـاذج أخـرى تحاول أن تفرض نفسها على واقعنا وعلى وجداننا وفكرنا . فمنذ نهاية القرن الثامن عشر ، ومع انتشـار الإنسان الغربى التدريجى فى أرجاء العالم ، من خلال التشكيل الاستعمارى الغربى ، وقيامه بتدويل نماذجه الحضارية والمعرفية الحديثة ، بدأ أيضاً ما يسمى «الغزو الثقافى» ، وهو محاولة الإنسان الغربى فرض نماذجه هذه على شعوب العالم . وهى نماذج أثبتت نفعها فى العالم الغربى فى المجالات الاقتـصادية والسياسـية ، ولكنها لها جوانبها المظلمة والمدمرة فى مـجالات أخـرى . وهذه النمـاذج ليس لهـا بالضـرورة علاقة قوية بواقع شعوب العالم غير الغربى (أى الغالبيـة العظمى لشعوب الأرض) ، وهى لهذا السبب ليست قادرة على التفاعل مع هذا الواقـع أو على الإسـهام فى تفسيـره أو تغـييـره ، بل ويؤدى تبنيها أحياناً إلى تدميره .

إن لكل مـجـتمع تحـيزاته ، ولكن مـا حـدث هو أن كـثيـراً من شـعوب العـالم بدأت تتـخلى عن تحـيزاتهـا النـابعـة من واقـعـهـا التاريخى والإنسانى والوجودى ، وبدأت تتبنى التحـيزات الغربية ،

وبدأت تنظر لنفسها من وجهة نظر الغرب . ولكن في الآونة الأخيرة ، بدأ كثير من العلماء العرب يشعرون أن المناهج التي يتم استخدامها في الوقت الحاضر في العلوم العربية الإنسانية ليست محايدة تماماً ، بل ويرون أنها تعبر عن مجموعة من التحيزات الكامنة المستترة في النماذج المعرفية والوسائل والمناهج البحثية التي توجه الباحث دون أن يشعر بها . هذه التحيزات هي التي تحدد مجال الرؤية ومسار البحث ، بل وتقرر كثيراً من النتائج .

وهذه الدراسة ، التي تنقسم إلى بابين ، تتصدى لهذه القضية . ويضم الباب الأول أربعة فصول ، يتناول أولاها قضية تعريف التحيز بشكل عام ، أما الفصل الثاني والثالث فيتناولان التحيز للنموذج المعرفي المادي المرتبط بالحضارة الغربية الحديثة ، ويتناول الفصل الرابع بعض التحيزات المتعينة مثل مفهوم التقدم المادي . ويحاول الباب الثاني تقديم النموذج البديل ، فيتناول الفصل الأول منه آليات تجاوز التحيز ، أما الفصل الثاني فيترك الجانب التفكيكي ويصل إلى الجانب التأسيسي فيتناول بعض المنطلقات الأساسية للنموذج البديل وبعض الأمثلة على محاولات تطبيقه .

وبعد – هذه محاولة أولية لطرح قضية منهجية وفكرية في غاية الأهمية (في تصوري وتصور الكثيرين) . ونرجو من الله أن تنجح هذه الدراسة في أن تكون نواة لدراسات أخرى يقوم بها آخرون تعمق من رؤيتنا وتطرح المزيد من البدائل . والله من وراء القصد .

عبد الوهاب المسيري
القاهرة – دمنهور
نوفمبر ٢٠٠٠

الباب الأول

النماذج والتحيز

الفصل الأول

النماذج والتحيز

لفهم إشكالية التحيز (أو أى إشكالية أخرى) بشكل متعمق لابد أن نتجاوز سطح الظاهرة لنصل إلى جذورها وعناصرها المتشابكة ، والتى تتبدى فيما نسميه النموذج الإدراكى أو المعرفى.

أمثله

حياة المرء مكونة من مجموعة من الحركات والأفعال والسلوكيات والحوادث والإشارات وآلاف المعطيات الحسية الأخرى، وباستثناء بعض العمليات الأساسية مثل التنفس الاعتيادى ومضغ الطعام، كل شىء له دلالة . فكل ما هو إنسانى له بُعد ثقافى وحضارى ، وتعبير عن نموذج .

ولكن ما هو النموذج ؟

* لابد أن أضرب مثلاً لأوضح المصطلح : كنت فى منزلى فى الولايات المتحدة وكانت زوجتى فى إنجلترا تجمع المادة العلمية لرسالتها للدكتوراه فى إنجلترا . وفجأة انتابنى شك عميق فى أن ابنى الصغير مريض . فأخذت درجة حرارته ، وبالفعل وجدتها مرتفعة . فاتصلت على الفور بالطبيب لأحدد موعداً معه ، فسألتنى

المرضة عن "مسز المسيرى" (حيث اعتادت أن زوجتى هى التى تأخذ طفلينا للطبيب) ، فأخبرتها بأن مسز المسيرى فى إنجلترا ، ثم أضفت بحدة واضحة أنه لا يوجد وقت نضيعه فى مثل هذه الأسئلة ، إذ لم أر أى علاقة بين السؤال والموقف الحرج الذى وجدت نفسى فيه . فطلبت منى بحزم أن أضع سماعة التليفون وأن آخذ درجة حرارته مرة أخرى . وحينما فعلت وجدت أن حرارته عادية ، فاتصلت بالمرضة لأخبرها أن كل شىء على ما يرام . فضحكت المرضة وعنفتنى قائلة : "إننى لابد من الصنف الذى يتهم زوجته بالقلق المفرط على الأولاد" ، فاعترفت بذلك . فأخبرتنى أن هذا نمط (أى نموذج) سائد : فى غياب الزوجة تسيطر على الزوج النماذج الإدراكية التى تسيطر على زوجته، فهو يحل محلها وظيفياً ، ويتم كل هذا دون وعى منه ، وأنها حينما سألتنى عن مسز المسيرى وعرفت بغيابها ازدادت يقيناً أنها حالة "قلق وظيفى أو نماذجى"* ، وهى حالة قلق غير واعية يقع الإنسان فى براثنها دون أن يدرى ، حيث يقلق الزوج "نيابةً" عن الزوجة ، ودون وعى من جانبه ، ويتقمص نموذج الأم التى لا تكف عن القلق

---

* «نماذجى» تعنى أنه يعبر عن النموذج بشكل متبلور وأنه ينضوى تحت نمط (ولا يهم إت كان هذا النمط سلبياً أم إيجابياً)، أما كلمة «نموذجى» فهى تعنى «مثال» و «قدوة حسنة» إلى آخر هذه التضمينات الإيجابية .

العدو الذى زعم أنه اخترق صفوفهم، وأنهم فى فلسطين استمروا فى النضال اليومى لمدة سبع سنوات تقريباً . لم يلاحظ صاحبنا هذه الوقائع والأرقام الضخمة ، لأن النموذج الإدراكى الانهزامى قد هيمن عليه وحجب عنه رؤية مؤشرات النصر وركز ناظريه على مؤشرات الهزيمة .

التحيزات ، كما نرى ، توجد فى كل مكان تقريباً : فى الأفكار والسلوك والإشارات والملابس . بل إن الطريقة التى بدأت بها هذه الدراسة متحيزة . فبدأت الدراسة بعدة أمثلة لتوضيح فكرة النموذج وبعد ذلك عرَّفت النموذج ، وأردفت ذلك بمجموعة أخرى من الأمثلة مستمدة من عالم اللغة . ثم تناولت المعايير الكامنة فى النموذج وضربت أمثلة على ذلك . وطرحت أخيراً فكرة التحيز ثم ضربت أمثلة عليها ، وكثير من الأمثلة التى ضربتها مستمدة من تجاربى الشخصية .

لم أبدأ دراستى بتعريف جامع مانع وإنما ببعض الأمثلة ، أى أننى آثرت أن أنتقل من الخاص إلى العام وأن أعرض الأفكار المجردة من خلال الأمثلة المتعينة التى تشكل جزءاً من معرفتنا ومن نسيج حياتنا . وهناك من يرى أن هذه الطريقة «ليست علمية» ولا أكاديمية ، مع أنها – فى تصورى وتصور الكثيرين – ممتعة وتوصل الفكرة بشكل مباشر للقارئ ، وتجعله يستفيد من خبراته

الشخصية ويتأمل فيها ويربطها بما يسمَّى «العلم» . فمثل هؤلاء يرون أن العلم يجب ألا يكون ممتعاً وأن الأمور الأكاديمية رمادية متجهمة ومنفصلة عن تجربة الإنسان الشخصية الوجودية . وهم ، بهذا ، يتحيزون إلى ما يسمَّى «الموضوعية» و«الحيادية» (وما أسميه «الموضوعية المتلقية») التى تدعو إلى إسكات الكيان والوجدان ، والتى تذهب إلى أن دخول الذات والخبرة الشخصية فى عملية الإدراك والتوصيل يُعد أمراً مشيناً ، ولذا يجب استخدام المبنى للمجهول حتى تختفى الذات .

وقبل أن نترك هذا الموضوع أجد أنه من الضرورى أن أشير إلى أن التحيزات المعرفية توجد كامنة فى الصور المجازية .

* ولأضرب بعض الأمثلة لتوضيح هذه الفكرة : فى إحدى المحاضرات تحدَّث أحدهم عن "سوق الأفكار" (بالإنجليزية : ماركت بليس أوف أيدياز market place of ideas) . والصورة المجازية هنا تضمر نموذجاً إدراكياً يرى العالم كله باعتباره سوقاً وأن الأفكار أشياء غير مترابطة معروضة للبيع . ونفس الشىء ينطبق على عبارة مثل : إن "العالم غابة" ، إن استخدمنا هذه الصورة المجازية فإننا فى واقع الأمر نقول إن العالم تحكمه القوانين الداروينية . وإن استخدمنا صورة مجازية أخرى وقلنا إن العالم "يسير كالساعة" فقد قلنا برؤية مادية آلية

ترى أن العالم يتحرك وكأنه آلة . وسواء أكان العالم "غابة" أم "ساعة" ففى كلتا الحالتين لا يوجد مجال للقيم الأخلاقية ، أما بالنسبة للإرادة الإنسانية ، فالصورة المجازية الأولى تجعل العالم ساحة تتصارع فيها الإرادات وينتصر فيها الأقوى الذى بوسعه أن يملى إرادته على الآخرين. أما الثانية فتمحو فكرة الإرادة الإنسانية تماماً.

* ولأضرب مثلاً آخر على تحيز الصور المجازية من عالم السياسة: وصف باراك جنوب لبنان بأنها «مستنقع» ووصف رجال حزب الله بأنهم «بعوض» . وصوره المجازية تعنى أنه يجب تجفيف المستنقع (أى ضرب جنوب لبنان بالطائرات كما حدث فى قانا) ، ومطاردة البعوض (أى قتل رجال المقاومة) . والصور المجازية هنا تبرز رؤية باراك العنصرية وتطمس الحقيقة – إن باراك وجنوده كانوا هناك كمغتصبين ، وأن مقاتلى حزب الله ، على العكس من ذلك ، أصحاب حق يحاولون حمايته من عدو مغتصب .

إن قضية التحيز فى المنهج والمصطلح هى إشكالية مهمة تواجه أى دارس فى الشرق والغرب والشمال والجنوب ، ولكنها تواجهنا فى العالم الثالث بحدة . فنحن ننشأ فى بيئة حضارية وثقافية لها نماذجها الحضارية والمعرفية المختلفة النابعة من تراثنا الحضارى ومن واقعنا التاريخى ، ولكننا نُواجَه بنماذج أخرى

تحاول أن تفرض نفسها على واقعنا وعلى وجداننا وفكرنا . فمنذ نهاية القرن الثامن عشر ، ومع انتشار الإنسان الغربى التدريجى فى أرجاء العالم ، من خلال التشكيل الاستعمارى الغربى، وقيامه بتدويل نماذجه الحضارية والمعرفية الحديثة ، بدأ أيضاً ما يسمَّى «الغزو الثقافى» ، وهو محاولة الإنسان الغربى فرض نماذجه هذه على شعوب العالم . وهذه النماذج التى أثبتت نفعها فى العالم الغربى فى المجالات الاقتصادية والسياسية ، لها أيضاً جوانبها المظلمة والمدمرة في مجالات أخرى ، وهذه النماذج ليس لها بالضرورة علاقة قوية بواقع شعوب العالم غير الغربى (أى الغالبية العظمى لشعوب الأرض) . وهى لهذا السبب ليست قادرة على التفاعل مع هذا الواقع أو على الإسهام فى تفسيره أو تغييره ، بل ويؤدى تبنيها أحياناً إلى تدميره .

ومما زاد الطين بلة ، أن هذه الحضارة أفرزت ما أسميه «الحضارة الاستهلاكية العالمية» وهى حضارة نبعت من النموذج المعرفى المادى الغربى ، ولكنها انفصلت عن جذورها وأصبحت لها حركيتها المستقلة ، وهى فى تصورى تقوم بتقويض كل الأشكال الحضارية ، بما فى ذلك الحضارة الغربية نفسها (وسنتناولها بالتفصيل فيما بعد) .

إن لكل مجتمع تحيزاته ، ولكن ما حدث هو أن كثيراً من شعوب العالم بدأت تتخلى عن تحيزاتها النابعة من واقعها التاريخى والإنسانى والوجودى، وبدأت تتبنى التحيزات الغربية ثم تحيزات هذه الحضارة الاستهلاكية العالمية ، وبدأت تنظر لنفسها من وجهة نظره . ولكن مع ظهور الفكر القومى العربى ، بدأ الحديث يتزايد عن الهوية والخصوصية الحضارية وضرورة الحفاظ عليهما، وأصبح هناك إحساس غامر لدى الكثيرين بأن هوية الأمة - قومية كانت أم دينية - مهددة بسبب تبنيها لنماذج ورؤى الآخر، دون إدراك عميق أحياناً للتضمينات المعرفية لهذه النماذج . وبدأ كثير من العلماء العرب يشعرون أن المناهج التى يتم استخدامها فى الوقت الحاضر فى العلوم العربية الإنسانية ليست محايدة تماماً ، بل ويرون أنها تعبرٍ عن مجموعة من التحيزات الكامنة المستترة فى النماذج المعرفية والوسائل والمناهج البحثية التى توجه الباحث دون أن يشعر بها ، وإن شعر بها وجدها لصيقة بالمنهج لدرجة يصعب معها التخلص منها . هذه التحيزات هى التى تحدد مجال الرؤية ومسار البحث ، بل وتقرر كثيراً من النتائج .

* لنضرب المثال البسيط التالى : هبت عاصفة ثلجية على إحدى قبائل الإسكيمو فتفرق شملها بضع ساعات . وحينما تجمع أعضاء القبيلة مرة أخرى وجدوا أن امرأة من القبيلة قد اختفت ،

فبحثوا عنها دون جدوى، فحملوا أمتعتهم واستمروا فى التنقل من مكان إلى آخر . وبعد عام عثروا عليها وحيدة تنسج لنفسها ثوباً . ورغم أنها كانت تعيش تحت ظروف مادية قاهرة ، إلا أنها لم تهمل زخرفة ثوبها بالنقوش المعروفة لديهم ، أى أن هذه السيدة «البدائية» توصلت (وبشكل فطرى) إلى أن الجمال مكون أساسى وضرورى للوجود الإنسانى ، وإلا لماذا أضافت الزخارف إن كانت تبحث عن الدفء والبقاء المادى وحسب ؟ ولعله لو نظر إليها أحد العلماء الذين تبنوا المفهوم المادى للتقدم بكل تحيزاته ، لما رصد الزخارف أبداً ، ولعله لو رصدها لاعتبرها شكلاً من أشكال "التخلف" ، فقد أضاعت هذه المرأة وقتها فيما لا يفيد .

* ولنضرب الآن مثلاً آخر : من أكثر المفاهيم تحيزاً مفهوم «التاريخ اليهودى» الذى يفترض وحدة اليهود وتجانسهم ، وأن ثمة تاريخاً واحداً ومصيراً واحداً لهم وأنهم يعيشون داخل دينامية مستقلة خاصة بهم ، منعزلة عن ديناميات المجتمعات التى يعيشون بين ظهرانيها بشكل أو بآخر. ولذا إذا أخذنا بهذا المفهوم وبدأنا نرصد سلوك أعضاء الجماعات اليهودية فإننا سنركز على عناصر التجانس ونهمل أو نهمّش العناصر التى تميِّز جماعة يهودية عن أخرى . ومن ثم إذا درس باحث ما كلاً من يهود الفلاشاه ويهود الولايات المتحدة منطلقاً من مفهوم التاريخ اليهودى الواحد فهو

سيبحث عن تلك العناصر المشتركة بين الجماعتين ، ولابد أن تكون هناك مثل هذه العناصر مثل أن كتابهم المقدس هو التوراة ، وأنهم يعيشون أقلية . ولكن ثمة عناصر أخرى فى تصورى أكثر أهمية وأكثر تفسيرية ، مثل أن يهود الفلاشاه لا يعرفون العبرية ويتحدثون بالأمهرية ويتعبدون بالجعيزية ، لغة الكنيسة القبطية الإثيوبية المقدسة . أما يهود الولايات المتحدة فتتعبد قلة منهم بالعبرية والغالبية تتعبد بالإنجليزية ، وهم يتحدثون بالإنجليزية ، إلا أقلية صغيرة ، فلا تزال تتحدث باليديشية . وبينما يؤمن يهود الولايات المتحدة الأرثوذكس بالتوراة والتلمود (أساس اليهودية الحاخامية ، التى تسمَّى أيضاً اليهودية التلمودية) ، فإن يهود الفلاشاه لا يعرفون التلمود أساساً . كما أن كتابهم المقدس يحتوى على أجزاء من العهد الجديد .

كما أن هذا الباحث الذى ينطلق من مفهوم التاريخ اليهودى الواحد سيهمل الاختلاف فى التراث الحضارى بين الجماعتين والاختلاف فى الملبس والمأكل والسلوك، وكل هذا لأن نموذجه التحليلى قد حدد له الرؤية.

* وقل نفس الشيء عن النموذج الذى يشيعه الصهاينة وهو أن اليهود كانوا يعيشون فى وطنهم القومى ، فلسطين أو يهودا ... إلخ ، ثم جاء القائد الرومانى تيتوس فحاصر القدس

وهزم اليهود وهدم الهيكل ، وبعدها بدأ نفى اليهود وتشتتهم . هذا هو النموذج السائد ، وهذه هى الرواية الصهيونية السائدة ، التى يقبلها الجميع تقريباً ، والذى يوجه أنظارنا إلى مجموعة من المعلومات ويستبعد غيرها . ولكن تغيير النموذج يؤدى إلى اكتشاف عدد كبير جديد من المعلومات . وقد بدأ الشك فى هذا النموذج يتسلل إلى نفسى حينما لاحظت أن الغالبية الساحقة ليهود العالم لم تهاجر إلى «وطنها القومى» المزعوم . فعدت إلى التاريخ لأختبر مدى مصداقية النموذج الصهيونى ومدى مقدرته التفسيرية . "فاكتشفت" أنه قبل هدم الهيكل كان عدد اليهود الموجودين خارج فلسطين يفوق عدد اليهود داخلها بعدة أضعاف. فاليهود لم "ينفوا" ولم "يشتتوا" قسراً وإنما "انتشروا" وحسب ، شأنهم فى هذا شأن كثير من الجماعات البشرية الأخرى !

أما بخصوص تيتوس فلاحظت أن الحرب التى خاضها لم تكن حرباً للرومان ضد اليهود ، وإنما حرباً للرومان ضد فريق من اليهود ، إذ أنه كان يقف إلى جواره (وإلى جوار تيتوس والجيش الرومانى المحاصر للقدس) ، جيش يهودى بقيادة "ملك اليهود" أجريبا الثانى ، أما فى سريره فكانت تنام عشيقته برنيكى ، أخت أجريبا ، وكان ينوى الزواج منها (لولا اعتراض الأرستقراطية الرومانية) .

بل ويمكن القول بأن المستهدف من الحملات الرومانية لم يكن اليهود وإنما يهودا (كما كانت تسمى إحدى مناطق فلسطين آنذاك) . ولذا نجد أن فسبسيان وابنه تيتوس من بعده رفضا لقب «جـوديايكوس judaicus» أى «هازم اليهود» مثلما تلقب فسبسيان بلقب «جيرمانيكوس germanicus» أى «هازم الألمان» لأن ثمرة الحملة لم تكن هزيمة كقوم (إثنوس ethnos) اليهود وإنما هزيمة يهودا كمنطقة جغرافية . ولذا سُكت العملات فى عهد تيتوس وعليها عبارة «جوديا كابتا judea capta» أى «يهودا التى تم أسرها» . فالذى تم أسره ليس اليهود وإنما المنطقة الجغرافية ، وما تم تهدئته هو بعض العناصر المعادية للرومان داخل المجتمع اليهودى فى فلسطين وليس اليهود ككل . إن تقويض النموذج السائد ومحاولة نحت نموذج تفسيرى جديد ، قد أعطى مركزية لبعض المعلومات التى آثر الصهاينة إما إخفاءها أو تجاهلها تماماً ، وقوَّض من صلابة بعض المعلومات «الصلبة» الأخرى .

* ولنضرب مثلاً رابعاً لا يختلف عن سابقه وإن كان أكثر درامية : يروج الصهاينة لأسطورة ماسادا . وهى آخر قلعة يهودية سقطت فى أيدى الرومان أثناء التمرد اليهودى الأول (٦٦ – ٧٠ ميلادية) ضد الإمبراطورية الرومانية . وتذهب الرواية الصهيونية

إلى أن الرومان حاصروا القلعة لمدة ثلاثة وسبعين أسبوعاً ولكن المحاصَرين اليهود آثروا الانتحار على الاستسلام . ويوزع الصهاينة صوراً للقلعة ، ويوجد متحف توجد فيه بعض الآثار اليهودية ، وكل هذا يبين أن ماسادا «حقيقة تاريخية» ملموسة . وحينما يُدرس الموضوع فإن الباحث الذى يهيمن عليه هذا التصور لواقعة ماسادا يراكم الحقائق في إطاره .

ولكن هناك من الحقائق الأخرى ما يمكنها أن تغير تماماً من مضمون الواقعة . القلعة قائمة ، نعمَ ، وثمة بقايا أثرية يهودية ، نعم . ولكن كُتب التاريخ الصهيونية حجبت كثيراً من العناصر التاريخية لتفرض على ماسادا معنى صهيونياً بحيث تصبح ماسادا رمزاً لوحدة الشعب اليهودى ولرفضه التام للاستسلام للأغيار . فمثلاً لا تذكر المصادر الصهيونية شيئاً عن الحرب الطبقية التى دارت رحاها بين فقراء اليهود وأثريائهم ، أو أنه ، قبل حادثة ماسادا ، تم ذبح ما لا يقل عن اثنى عشر ألف يهودى على يد إخوانهم من اليهود الفقراء . كما لا تذكر قادة التمرد الذين استسلموا وسيقوا إلى روما حيث أُعدموا . وهى لا تذكر كذلك شيئاً عن القلاع اليهودية الأخرى ، مثل هيروديوم وماكايروس ، التى آثرت الاستسلام والبقاء على الانتحار والموت عام ٧٠ ميلادية ، لعلمها أن الرومان لن يبيدوا من فيها لأنهم لم

وبدأوا يعاكسونه بطريقة لا تخلو من العنف . فاضطر بابا نويل المغترب المسكين، صديق الأطفال ، أن يمسك بعصا ويدافع عن نفسه ضدهم ، وكان منظراً مضحكاً للغاية : بابا نويل وهو مشتبك مع الأطفال في معركة حامية الوطيس ؛ دفاعاً عن النفس !

* ولأضرب مثلاً آخر : منذ نعومة أظفاري وأنا أجد أن واحداً من أكبر مصادر التوتر في حياة ربة البيت المصري البورجوازية هو طقم الصيني ، إذ عادةً ما تكسر الخادمة أو أحد الضيوف طبقاً أو ينكسر الطبق من تلقاء نفسه (والغيب لا يعلمه إلا الله) . فالطقم عادةً مكوّن من ستة أطباق أو اثني عشر طبقاً من الشكل نفسه ، وفي المأدبات تُرص الأطباق والفناجين بعناية فائقة وطبقاً لمعايير صارمة ، ولذا فكسر أحد الأطباق هو كسر للنسق الهندسي ، وقد تم تنشئتنا على حب الأنساق الهندسية الكاملة ، لأمر لا يعرفه إلا الله .

ولذا كثيراً ما أقترح أن نغيِّر إستراتيجية الفخامة والأبهة عن طريق كسر النسق الهندسي وإشاعة الأنساق غير الهندسية غير الكاملة ، فهذا أكثر ملائمة للحياة الإنسانية (والكمال ، كما نعرف، لله وحده) فيمكن أولاً أن نقرر أن عدد الأطباق يمكن أن يكون سبعة أو ثمانية أو تسعة ولا داعي لمتتالية ٦ - ١٢ - ٢٤ .

(وبالمناسبة حين كنت فى جمهورية التشيك اشتريت مزهرية وطلبنا ستة وردات من الكريستال انطلاقاً من تحيزاتى المصرية ، فأخبرتنى البائعة أن المفروض أن تكون الزهور سبعة . وحينما سألتها لِمَ ؟ لم تحر جواباً ، فهى لم تتساءل بخصوص تحيزاتها التشيكية للسبعة ، تماماً مثلما لم أتساءل أنا بخصوص تحيزاتى المصرية للستة) . وليس هناك ما يدعو لأن تكون الأطباق السبعة ، أو التسعة متماثلة ، إذ يمكن أن يكون كل طبق له شكله الفريد . هذا سيجعل كسر الطبق مسألة ليست مأساوية ولا نهائية ، إذ أنه لن ينكسر النسق الهندسى الكامل (فهو على كلٍّ مرفوض من البداية) .

وعلاوة على هذا ، فإن وجود أطباق بأشكال مختلفة يعنى التنوع والتعددية ، ونحن فى عصر التعددية أليس كذلك ؟ وسيفتح هذ الباب إمكانية أن يأتى صديق بهدية مكونة من طبق واحد وفنجان ، ومن ثم سيصبح كل طبق له شخصيته وسيكون محملاً بعبق الذكريات ورائحة المحبة، وأنا أسوق هذا الاقتراح وأنا أعلم مسبقاً أنه لن يُقبل، ومَن أنا حتى أحاول تغيير ذوق سيدات الطبقة المتوسطة وتحيزاتنا الراسخة ؟!

والآن ماذا يحدث لو ظهر أحد مصممى الأزياء فى فرنسا أو

إيطاليا أو إنجلترا وقرر العودة للطبيعة ، فوجد أن ألوان ريش الببغاء هي أحسن الألوان وقرر أنها الموضة ؟ أليس من المتوقع أن تتبع الناس اقتراحاته/أوامره ؟ ولو قرر هذا المصمم أن العودة للطبيعة تتطلب إعادة صياغة التانورات بحيث تزود بذيول أو ما يشبه الذيول لتأكيد استمرارية الإنسان والحيوان (وهذا لا يختلف كثيراً عن التسريحة التى تُسمَّى «ذيل الحصان» التى تذكرنا بالحصان ، وتسريحة الكنيش التى تحاول أن تجعل شعر المرأة يشبه شعر الكلب المعروف بهذا الاسم) هل يجرؤ أحد على الوقوف ضد الموضة ؟ لماذا يُرفض اقتراحى النبيل الإنسانى ، وتُقبل كل أوامر وتحيزات مصمم الأزياء الغربى ؟

وعلى كلٍّ اتخذ مصممو الأزياء فجأة قراراً غريباً (من وجهة نظر دمنهورى مثلى أو حتى من وجهة نظر مثقف قضى وقتاً طويلاً من حياته فى الغرب) هو أن تعرية بطن الأنثى (وليس بطن الرجل) بعد أن كان أمراً تأنف منه النفوس أصبح هو عين الصواب والعقل (ولعل هذا استمرار لتغيُّر موقف الإنسان الغربى من الجسد ، والذى أشرنا إليه آنفاً) ، وقد اجتاحت هذه الموضة فى العامين الماضيين كل الفتيات فى الغرب وكأنها أوامر الحاكم العسكرى أو ڤيروس أصيب به الجميع ، وأصبحت البلوزة الدمى

فـانتـر demi-ventre هى الهدف الذى يسعى نحوه الجميع (وحتى لا يُقال إننا لم نلحق بركب التطور والتقدم ، لاحظت أن الفتيات فى بعض النوادى المصرية التى يُقال لها "راقية" يرتدين مثل هذه البلوزات ، إذ يبدو أن أوامر [وتحيزات وڤيروسات] مصممى الأزياء فى الغرب قد وصلتهم) .

* والتحيز للنموذج الحضارى الغربى يتبدى فى أبسط الأشياء التى تحيط بنا مثل الأثاث : حينما تدخل أى منزل مصرى (وربما عربى) ، لا سيما منازل أعضاء الطبقة المتوسطة ، فإنك ستجد أن هناك شيئاً يسمى غرفة الطعام وشيئاً آخر يسمّى غرفة الصالون (عادةً مذهبة) . وغرفة الصالون هذه غير غرفة المعيشة وغير غرفة النوم . (بينما لو دخلت بيتاً يابانياً تقليدياً فإنك ستجد أن الأمر جدُّ مختلف ، فقد تجد غرفة واحدة مفروشة بالحصير اليابانى تستخدم كغرفة للجلوس والطعام طيلة النهار ثم تستخدم للنوم مساءً ، ولا يزال بعض أعضاء الطبقة المتوسطة فى اليابان يعيشون فى منازل على هذا الطراز) . ومن الواضح أن أعضاء الطبقات المتوسطة العربية قد هجروا مفهوم المنزل العربى التقليدى بصحنه الداخلى وأسواره العالية الخارجية وأثاثه المختلف وتبنوا بعض المفاهيم الغربية للمنزل . والمفهوم الغربى الذى تبنوه ربما

يعود إلى أواخر القرن التاسع عشر حين تبنت الأرستقراطيات العربية المتفرنجة (من كبار الملاك الزراعيين وموظفى البلاط الملكى) الأسلوب الغربى فى الحياة . فقد كان أعضاء هذه الأرستقراطيات يودون أن تصبح بلادنا «قطعة من أوربا» ، فهجروا تراثهم وألقوا بأنفسهم بكل عنف فى أحضان أوربا ، واستجلبوا كبار المهندسين الغربيين لإعادة صياغة البيئة بما يتفق مع أحلامهم الغربية . وكما هى العادة، سارع بعض أعضاء الطبقة المتوسطة إلى تقليدهم ، ولكنهم لم يكن لديهم لا الإمكانات المالية الكافية لتقليد الأثاث الغربى (كما لم يكن لديهم المعرفة الكافية للتمييز بين الأصل الجميل والمسخ الذى يسمى تقليداً) ، وبدأت عملية "تطوير" لهذه الطرز بما يتفق مع ميزانية الطبقة المتوسطة المحدودة والمساحة الصغيرة المتاحة فى منازلهم . ولذا ظهر ما كان يسميه الأجانب المقيمين فى مصر بسخرية بالغة طراز «لوى فاروك» (أى أنه ليس طرازاً فرنسياً خالصاً مثل «لوى كانز» أو «لوى سيز» وإنما تقليداً منحطاً لهما) .

ما نقوله ببساطة هو أن أثاث المنزل المصرى لم يأت من دمياط (عاصمة الأثاث فى مصر) بسيارة نقل ، وإنما جاء لنا من الغرب من خلال عملية تاريخية مركبة . وهذا الأثاث ليس مجرد أشياء

توضع فى المنزل ، وإنما هو سلعة تجسد توجهاً (تحيزاً) واعياً للحضارة الغربية من قبَل الأرستقراطية العربية ، وغير واعٍ من قبَل الطبقات المتوسطة .

ومن الطريف ملاحظة كيف أن التحيز غير الواعى يمكن أن يتناقض مع الواقع الوجودى المُعاش للشخص . فالمساحة المتاحة لسكن الطبقة المتوسطة المصرية صغيرة ولا تتسع لكل هذا الأثاث ، ولذا كثيراً ما يتحول الأثاث الغربى أو شبه الغربى إلى مصدر تنغيص على الجميع ، فهو مكلف للغاية ويحتاج لمساحة كبيرة ، فيتم تخزينه أو صفه فى المنزل الذى يتحرك سكانه بصعوبة بالغة لأن أحجام الكراسى ضخمة للغاية . ثم تقوم ربة البيت بالدفاع بشراسة بالغة عن الطقم المذهب ضد هجمات الأطفال بل وكل أعضاء الأسرة ، لأن غرفة الصالون تظل مغلقة إلا فى حالة وصول كبار الزوار ، الأمر الذى لا يحدث إلا مرة أو مرتين فى العام . وبذا تشكل الغرفة إهداراً كاملاً للموارد ، وهجوماً على الراحة اليومية لصاحبها وتصبح مثلاً جيداً على تحيز الواقع المستورد ضدنا . أما غرفة الطعام فمصيرها أحسن قليلاً إذ ينجح أعضاء الأسرة فى تحويلها إلى غرفة للمذاكرة ، وتتحول المائدة إلى مكتب لأعضاء الأسرة يجلسون كلهم حوله ، فكأن النموذج التقليدى

بتحيزاته يفرض نفسه على النموذج الغربى المستورد ، فينتج هذا التشوه .

* ولنترك غرفة الطعام والجلوس للنظر إلى شىء أبسط وهو الكرسى : الكرسى شىء عادى مصنوع عادةً من الخشب (وإن كان يُصنع الآن من الحديد والبلاستيك ومواد أخرى) له أربعة أرجل فى العادة (يمكن أن يكون ثلاثة فى بعض الحالات) . ومن المألوف والمعتاد أن يُستخدم للجلوس عليه (وإن كان يُستخدم أحياناً للوقوف عليه للوصول إلى لمبة النور) . وهو يوجد عادةً فى كل زمان ومكان . ولذا حينما تم تأسيس الجامعات فى دول الخليج فى الستينيات من هذا القرن (ومن قبلها كل الجامعات العربية الأخرى) ، كان من الطبيعى أن يتبنى الجميع الكرسى . لم يدر بخلد أحد أن الكرسى له تاريخ وله أصول بيئية ، وأن هناك من يفترش الأرض ويدرس ، أى أنه لا يوجد فى كل زمان ومكان كما كانوا يظنون ، وأن ارتفاع الكرسى أمر ليس مفروغ منه ، فهناك نظريات تقول إن الكرسى بارتفاعه الحالى يضر بالعمود الفقرى ، وأن من الأجدر أن نجلس على كراسٍ منخفضة قريبة من الأرض تريح الظهر وتوفر الموارد (فهى أقل تكلفة) وربما تحقق شيئاً من الهوية . لم يدر بخلد أحد أن الحضارة الغربية تبنت الكرسى من

البداية بسبب برودة الجو (ولذا فهي لا تشتهر بالسجاد أو الأكلمة)، على عكس بلادنا فالسجاد مفردة أساسية من مفرداتها الحضارية . وقد تحول الكرسى فى ذهن الجميع إلى رمز التقدم ، مع أن السلاف ، على سبيل المثال ، كانوا يقدمون القرابين البشرية حتى القرن التاسع الميلادى وهم جلوس على الكراسى ، بينما كان معاصروهم من العرب والصينيين يفترشون الأرض ويتحركون فى إطار حضارات مركبة إلى أقصى درجة .

والموظف الذى نهرنى حين جلست على السجاد الوثير فى صالة كبار الزوار فى إحدى المطارات العربية لم يكن يعرف هذا ، إذ همس فى أذنى بيقين كامل : "هذا ليس سلوكاً حضارياً" . كنت مرهقاً للغاية ، ولذا ارتميت على الكرسى وتركته يسبح فى الظلمات . ولا يقولن أحد إننى أدعو إلى التخلى عن الكراسى ، فكل ما أطلبه هو فتح باب الاجتهاد بخصوصها وبخصوص طولها وعرضها ، وبدائلها . ولِمَ لا ، ألا يمكن أن نحقق اكتشافات ونسهم فى تاريخ الحضارة مرة أخرى ، أم أنه كُتب علينا أن ننتظر إلى أن يكتشف أحدهم فى الغرب خطورة الكرسى على العمود الفقرى ، وعلى أخشاب العالم وغاباته حتى نسارع بتنفيذ الأوامر الصارمة والتحيزات الكامنة ؟

* ويمكننــا الآن أن ننتــقل من داخل المنزل "العــربى" إلى خارجه ، إن فعلنا لن نجد الأمر مختلفاً كثيراً :

بنوا الجامعات من الحجر فى وسط الصحارى ووضعوا فيها التكييف بعـد أن كـانوا قـد بنوا بيـوتهم على الطراز الفـرنسى والإيطالى الحديث ، أو على وجـه الدقـة شـبـه الفـرنسى وشـبـه الإيطالى وشبه الحديث، ثم «ستروها» بأسوار عالية حتى يطبقوا الشريعة . وهكذا كما تتصارع غرفة المائدة مع متطلبات الأسرة ، يتــصــارع الطراز الحــديث (المكشــوف) مع طلب الســتــر من المستهلكين «الإسلاميين» ، ولا يهم طبعاً الاغتراب الناجم عن العيش فى طراز معمارى لا ينتمى إلى معجمنا الحضارى .

وهذه المبانى التى شيدناها سنلاحظ أنها فى غالب الأحيان تشـبـه العلب المتراصة والفريزر الضـخم ، وإن تم زخرفتـها ، فالزخرفة قد تكون أعمدة كورينثيه تارة أو زخارف من الزهور ، بل أحياناً زخارف عربية ، ولكنك لن تجد الخط العربى بينها أبداً . بل إن لافتات الشوارع الآن تُكتب بالكمبيوتر.

وكنا ندرس فن الخط العـربى فى المدارس ، ولكن أدركنا مـا يسمًى بالتقدم فـأُلغيت هذه الحصة ، وأُلغى معها إدراك أن الخط فن، وظهرت أجيـال لا تُدرك هذا أسـاسـاً . بل هناك بعض فنانى

الخطوط يتحرجون من ذكر أنهم خطاطون ، فالخطاط الآن هو من يكتب الإعلانات . ويكن أن نقول إن هذا إهمال وعدم اكتراث بالتراث ، وهو بالفعل كذلك . لكن تعمق قليلاً وستجد أننا تبنينا رؤية للفن استوردناها من الغرب ، ولأن فن الخط ليس ضمن الفنون الغربية الجميلة فقد ضمر فن الخط هنا ، وهو من أهم الفنون العربية، لا لسبب إلا لأنهم هناك لا يعترفون به فناً.

هيمنة النموذج الحضاري الغربي الحديث

كل الأمثلة السابقة تبيِّن أننا تركنا تراثنا وتبنينا تراث الآخر الغربى بكفاءة عالية ، وذلك دون فهم لمدلول ما نفعل ودون أن نقوم بعملية نقدية إبداعية لتراثنا ولتراثهم ولحضارتنا ولحضارتهم . لقد تبنينا نموذجهم الحضارى الحديث والتهمنا منتجاتهم الحضارية ، التى وضعناها فى بيئتنا التى تتصارع معها ، فكنا كالمُنبت لا أرضاً قَطَع ولا ظهراً أبقى، فلماذا حدث ذلك ؟

من الحقائق الأساسية التى تجابه الإنسان فى القرن العشرين أن النموذج الحضارى الغربى الحديث أصبح يشغل مكاناً مركزياً فى فكر ووجدان معظم المفكرين والشعوب بسبب انتصاراته المعرفية والعسكرية الواضحة فى مجالات عديدة ، والتى ترجمت نفسها إلى إحساس متزايد بالثقة بالنفس من جانب الإنسان

الواحدية للنماذج المعرفية المادية . كان هناك منذ البداية هوبز ومكيافيللى ، ثم جاء من بعدهما فلاسفة عصر الاستنارة الذين أعلن بعضهم أن الإنسان إن هو إلا آلة . ثم جاء داروين ونيتشه وإنجلز و(جانب من) ماركس وفرويد ، وأخيراً دريدا ، فقاموا بتفكيك الإنسان وإعادة تركيبه حتى يتسق مع منطق المادة والأشياء الطبيعية .

٨ - لكن هذه الثنائية داخل المنظومة المادية واهية تماماً وزائفة ، فما الفرق بين الإنسان الطبيعى (المادى) والطبيعة/المادة؟ ألا يستمد قوانينه منها ؟ لذا تُصفى ثنائية الإنسان والطبيعة لحساب الطبيعة ، حينئذٍ يصبح الإنسان مادة لا قداسة لها ، لا يحوى أى أسرار أو خصوصية ، ومن ثم يفقد مركزيته ويصبح إما ذرة تافهة ليس لها وضع خاص أو قيمة خاصة (فى الرؤية الآلية المادية) أو يصبح جزءاً من كل ليس له أهمية فى حد ذاته (فى الرؤية العضوية المادية) .

ولنلاحظ هنا أن هذه المنظومة بدأت بسحب الأشياء (الطبيعة) من عالم الإنسان ووضعتها فى عالم الأشياء الذى له قوانينه الخاصة . ثم سحبت الإنسان نفسه من عالم الإنسان ووضعته فى عالم الأشياء حيث تم إخضاعه لقوانينها ، أى القانون الطبيعى ،

أى أن المنظومة المعرفية الغربية المادية الحديثة بدأت بإعلان موت الإله باسم مركزية الإنسان ، وانتهت بإعلان موت الإنسان باسم الطبيعة والأشياء والحقيقة المادية . وهذه هى الواحدية المادية : أن تصبح كل المخلوقات خاضعة تماماً لنفس القانون المادى الصارم وأن يسود منطق الأشياء على الأشياء وعلى الإنسان . وهذا هو حجر الزاوية فى المشروع المعرفى الغربى : ثمة قانون واحد وثقافة واحدة وإنسانية واحدة (تكتسب وحدتها من كونها جزءاً من النظام الطبيعى) ولذا فإن ثمة نموذجاً واحداً للتطور . ويلاحظ أن حركة البناء الفكرى المادى تتجه دائماً نحو تصفية الثنائيات التى نجمت عن الثنائية الدينية (الخالق/ المخلوق) وعن الثنائية الهيومانية (الإنسان/الطبيعة) .

انطلاقاً من كل هذا ، تم طرح رؤية معرفية ورؤية أخلاقية ، وتم تحديد الأولويات :

١- فعقل الإنسان جزء لا يتجزأ من الطبيعة/المادة ، قادر على تسجيلها وتلقيها بشكل موضوعى وبكفاءة وحياد ، ولكنه غير قادر على تجاوزها أو الاستقلال عنها ، فهو جزء لا يتجزأ منها ، ولذا فلنسمه «العقل المادى» . هذا العقل لا محدود مثل الطبيعة ، ولكنه أيضاً سلبى محايد ، وليس له حدود مستقلة (ولنا أن نلاحظ أن

صفات العقل هي ذاتها صفات الطبيعة/المادة وصفات الإنسان الطبيعي المادى) .

٢- والعقل المادى قادر على تسجيل الجوانب العامة والمشتركة ، فالجوانب العامة هي الجوانب الطبيعية المادية وهي وحدها التى تساعده على التوصل للقانون العام .

٣- الحقائق عقلية وحسية ، قابلة لأن تُعرَف وأن تُقاس فى جميع جوانبها ، والموجود هو ما نحسه ونتعقله وما وراء ذلك فأوهام ، والمعرفة معرفة حسية فقط .

٤ - ما هو مجهول فى الطبيعة (المادية والبشرية) هو أمر مؤقت ، إذ أنه سيصبح معلوماً من خلال تراكم المعلومات ، ومن ثم ستتراجع رقعة المجهول بشكل مضطرد . وسيؤدى تزايد رقعة المعلوم والتراكم المعرفى المستمر إلى المعرفة الكاملة أو شبه الكاملة للواقع بحيث يمكن التحكم فيه تحكماً كاملاً أو شبه كامل . ومن ثم تصبح كل الأمور (إنسانية كانت أم طبيعية) مادية ، محسوبة ومبرمجة ومتساوية ، أى أن كل الأمور تصبح نسبية .

٥ - العقل المادى قادر على شيء واحد ، هو رصد الواقع كما هو وإعادة صياغة الإنسان وبيئته المادية والاجتماعية بما يتفق مع القوانين الطبيعية العامة التى أدركها الإنسان من خلال دراسته

لعالم الطبيعة والأشياء (وهذا ما يسمَّى «عملية الترشيد» ، أى تنميط الواقع من خلال فرض الواحدية المادية عليه حتى يمكن التحكم الكامل فيه ثم حوسلته ، أى تحويله إلى وسيلة ومادة استعمالية يمكن توظيفها بكفاءة عالية وتعظيم فائدتها) .

٦ – وإذا انتقلنا من المنظومة المعرفية إلى المنظومة الأخلاقية، فإن هذا العالم المادى لا يعرف المقدسات أو المطلقات أو الغائيات، وهدف الإنسان من الكون هو عملية التراكم والتحكم هذه ، التى ستؤدى فى نهاية الأمر إلى السيطرة على الأرض وهزيمة الطبيعة وتسخير مواردها وتحقيق هيمنة الإنسان الكاملة عليها . ولتحقيق هذا ، لابد من إدخال كل الأشياء (الإنسان والطبيعة) فى شبكة السببية الصلبة حتى يتم شرحها وإخضاعها للقوانين الطبيعية . والإنسان هنا ليس كائناً مستخلفاً أو مكرماً وإنما كائن مادى .

٧ – والقوانين الأخلاقية لا وجود لها إذ لا يوجد سوى المنفعة واللذة وتعظيم الإنتاج بهدف تعظيم الاستهلاك حتى تستمر عملية الإنتاج فى الدوران ويتصاعد الاستهلاك ، وهكذا فى حركة دائرية تشبه العود الأبدى عند نيتشه أو مسرحية فى مسرح العبث أو الرؤية الوثنية للتاريخ كدوائر لا معنى لها .

ولابد أن نضيف بُعداً أساسياً لهذه المنظومة الفلسفية المادية كثيراً ما تهمله الدراسات الغربية وغير الغربية ، وهو أن هذه المنظومة على مستوى الممارسة التاريخية أخذت شكل الإمبريالية الغربية . فهذه المنظومة وضعت الإنسان في مركز الكون (نظرياً) . ولكن هذا الإنسان لا تحده حدود ولا تقيده قيود ولا يرتبط بأى قيم (باستثناء سلم القيم والمعايير الذى يقرره هو) . ومن ثم أصبح الصراع قانون الحياة الأوحد وأصبحت القوة الآلية الأساسية وربما الوحيدة لحسم كل الخلافات والإشكاليات والتناقضات . وبدلاً من أن يصبح العالم مادة استعمالية لكل الجنس البشرى ، أصبح العالم ومعظم البشرية مادة استعمالية للجنس الأبيض (صاحب القوة) . وبدلاً من أن يقف الإنسان فى مركز الكون وقف الإنسان الأبيض فيه ومارس إحساساً بهذه المركزية وضرورة الحفاظ عليها وفرضها على الآخرين (وهذا أمر متوقع تماماً في غياب المطلقات الأخلاقية) . ومن هنا ظهرت الرؤية المعرفية الإمبريالية التى هيمنت على عقل الإنسان الغربى ، وعلى رؤيته للعالم ، وبعدها ظهر التشكيل الإمبريالى الغربى ، حين قرر الإنسان الأبيض ، بعد عصر نهضته وبعد إحساسه بمركزيته ، السيطرة على الكون (الإنسان والطبيعة) فجيَّش الجيوش وقام

بإبادة سكان الأمريكتين ونقل ملايين الأفارقة إلى هاتين القارتين ليتحولوا إلى قوة عضلية ، فهلك بعضهم أثناء عملية النقل وتم تحطيم الباقين بعد وصولهم .ثم نشر قواته العسكرية في كل أنحاء العالم وحطم البنى الاقتصادية والسياسية والثقافية والمحلية في آسيا وأفريقيا وحول هاتين القارتين إلى مستعمرات وأسواق لمنتجاته وإلى مصدر للمواد الخام والعمالة الرخيصة وألربح . ومن خلال الهيمنة العسكرية المباشرة فرض النظام العالمي القديم، ومن خلال خليط من الهيمنة العسكرية وتجنيد النخب السياسية والثقافية المحلية الحاكمة لصالحه وإغوائها فرض النظام العالمي الجديد .

تحيزات النموذج المعرفي المادي

كل تحيزات النموذج المعرفي الغربي الحديث نابعة من واحديته المادية الناجمة عن تصفية ثنائية الإنسان والخالق ، ومن ثم ثنائية الإنسان والطبيعة .

١- وأهم التحيزات هو التحيز للطبيعي والمادي على حساب الإنساني وغير المادي . وهو تحيز ضد الطبيعة البشرية لصالح الطبيعة المادية وطبيعة الأشياء . ويظهر هذا في محاولة تفسير ما هو إنساني بما هو طبيعي وغير إنساني ، فيُخضع الإنسان بشكل

مطلق لقوانين الضبط والقياس والتحكم والتفسير التى تُستخدم فى دراسة الظواهر الطبيعية ، وتُخضع الظواهر الاجتماعية لممارسات مناهج البحث فى العلوم التجريبية نفسها ، وهذ ما يسمَّى بوحدة العلوم (فى مقابل استقلال العلوم الإنسانية عن العلوم الطبيعية ، والتى نسميها نحن «واحدية العلوم») .

وفكرة وحدة [أو واحدية] العلوم هى الترجمة المعرفية والأخلاقية لتصفية ثنائية الإنسان والطبيعة ، وهى المنهجية التى يتم عن طريقها فرض الواحدية المادية على الكون ، وفرض منطق الأشياء على الإنسان وحوسلة العالم بأسره (أى تحويله إلى وسيلة) واختزاله إلى بُعد طبيعى مادى واحد يسرى عليه القانون أو القونين العامة للمادة . وينجم عن الانتقال من الإنسانى إلى الطبيعى تحيز ضد الغائية وإسقاط للأبعاد الأخلاقية والنفسية والإرادية (ولنقل العناصر الإنسانية لأن الإنسان هو المخلوق الوحيد فى الكون صاحب الإرادة الحرة ، الذى يبحث عن الغاية فى الكون ، والذى يتبع منظومات أخلاقية ينظم بها سلوكه) . ثم تظهر الحتميات المختلفة التى تفسر الكون وسلوك الإنسان والبعوضة بشكل علمى حتمى ، أما أحلام الإنسان وتطلعاته الأخلاقية وقرارته الحرة فهذه أمور غير علمية (خاصة – كيفية – غائية) .

٢- فى هذا الإطار ، تم التحيز للعام على حساب الخاص . والافتراض السائد أنه كلما تم تجريد الظواهر من خصوصيتها وارتفع المستوى التعميمي ، ازددنا علمية ودقة . ويجب أن يستمر تجريد الظواهر من خصوصيتها (الإنسانية والغائية) ، التى تشكل ثغرة فى النظام الطبيعى المتصل ، إلى أن نصل إلى مستوى تعميمى يقال له "علمى" و"عالمى" تُسد فيه كل الثغرات وتُصفى فيه كل الثنائيات ، وهو المستوى الذى يتم فيه الوصول إلى القانون (الطبيعى/المادى) ، أى القانون الذى يربط الإنسانى بالطبيعى ، ويخضع الإنسانى للطبيعى ، ويتحول فيه الإنسانى إلى طبيعى/ مادى . وكل هذا يعنى أن المنحنى الخاص للظاهرة (خصوصيتها وفرادتها وتعينها) يشكل عائقاً فى عملية الدراسة العلمية ، ويبطئ من عملية التجريد التى تؤدى إلى الوصول إلى القواعد الطبيعية العامة .

٣ - ثمة تحيز للمحسوس والمحدود وما يقاس والكمى على حساب غير المحسوس واللامحدود وما لا يقاس والكيفى . فالعلم الغربى قد حصر دراسة الظواهر فى العالم المحسوس فقط ، ولذا تعرضت كل الملامح اللامحددة والمركبة والكيفية (فى ظل النماذج التحليلية المادية) إلى التجاهل ، فما لا يمكن قياسه أو ملاحظته

خارجياً (العناصر الغائية ، على سبيل المثال) ، ليس موضوعاً للدراسة العلمية . والظواهر شديدة التركيب والمؤثرات من خارج العالم المحسوس (المعروف لنا من خلال حواسنا الخمسة وحسب) لا تقبل بسهولة الملاحظة أو التجربة أو التعبير الكمى أو الإحصائي الذى يتبناه العلم الحديث .

وحتي يتسني للباحث دراسة الملامح الكمية الخارجية للظاهرة ، لابد أن يعتمد أساساً علي أدوات القياس والتفتيت الكمى أو الإحصائي الخارجى "المحايد" (استمارة استبيان – مؤشرات إحصائية – نماذج رياضية) ، وذلك للإحاطة كمياً بالظاهرة ، وهو، في سبيل وصوله إلي هذه النتائج العلمية ، يكون حريصاً علي تفتيت الكلية العضوية للظاهرة وعلي تشريحها واختزال عناصرها الأولية وجزئياتها بحيث يتحول التمايز الكيفى الداخلى للظاهرة إلي اختلاف كمي خارجي ، وكل ما لا يمكن تفتيته كمياً تعتبر أموراً ثانوية ، يمكن استبعادها وإهمالها .

٤- ثمة تحيز للبسيط والواحدى والمتجانس على حساب المركّب والتعددى وغير المتجانس ، فيتم التحيز للظواهر البسيطة والتفسيرات البسيطة التي ترد الظاهرة إلي مبدأ واحد أو متغير واحد أو متغيرين ، ويتم تفسير السلوك الإنساني من خلال نماذج

بسيطة . ومن هنا ظاهرة الواحدية السببية المرتبطة تمام الارتباط بوحدة العلوم والواحدية المادية . فثمة بحث دائب عن مركز واحد كامن في المادة وعن سبب واحد لتفسير الكون (مطلق كامن في المادة) يشكل الركيزة الأساسية لكل شيء ويُرد إليه كل شيء بما في ذلك الطبيعة البشرية ذاتها ، فهو مصدر الوحدة والتماسك في الكون ، والنقطة أو الغاية التي تتحرك نحوها كل الكائنات بما في ذلك الإنسان . وغالباً ما يكون هذا المبدأ هو المتغير الاقتصادي (المنفعة المادية عند بنتام - تحقيق الربح وتراكم الثروة عند آدم سميث = وتطور أدوت الإنتاج عند الماركسيين)، ولكنه قد يأخذ أشكالاً أخرى (الجنس عند فرويد - البطولة عند كارليل - الجنس الآري عند النازيين - أرض الميعاد عند الصهاينة) .

هذه الواحدية السببية النابعة من الواحدية المادية تنطوي على رفض عميق للآخر المختلف ، فوجود الآخر يعني وجود نماذج مختلفة وقوانين مختلفة للبشر (داخل إطار من الإنسانية المشتركة الذي لا يجبُّ التنوع الإنساني) .

٥ - ثمة تحيز للموضوعي على حساب الذاتي ، والالتزام بالموضوعية في هذ السياق يعني أن يتجرد الباحث من خصوصيته ومن التزامه الخلقي ومن عواطفه وحواسه وكليته

نموذج الاشتراك فى كتاب الهلال

يمكنكم الحصول على خصم ١٠ ٪ من قيمة الاشتراك فى كتاب الهلال بارسال هذا الكوبون مرفقا به حوالة بريدية غير حكومية داخل (ج.م.ع) أو بشيك مصرفى (باقى دول العالم) بقيمة الاشتراك لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل بخطاب لإدارة الاشتراكات .

الاسم : ....

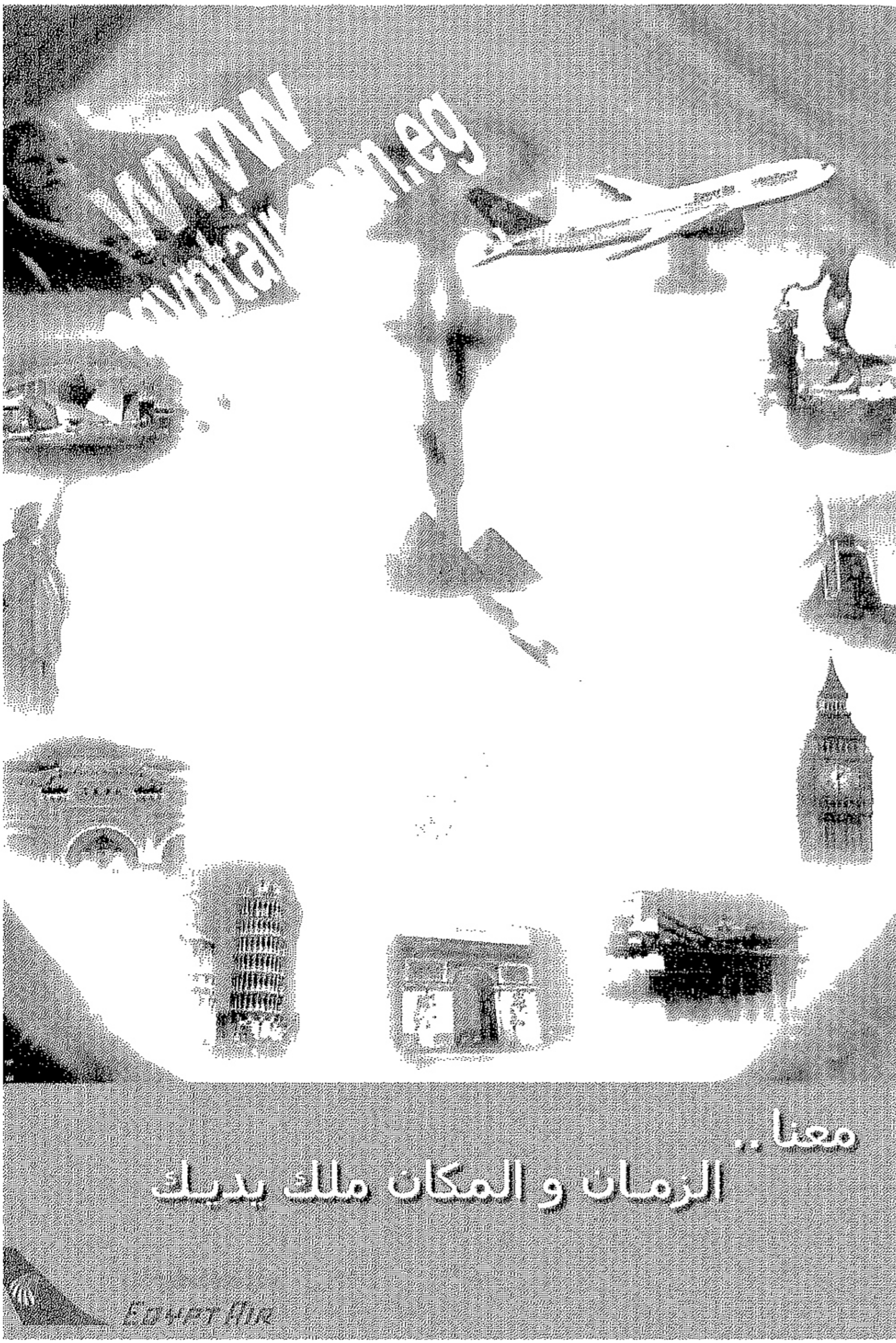
العنوان : ....

مدة الاشتراك : .... التليفون ....

	داخل ج.م.ع. جنيه	البلاد العربية دولار	آسيا - أوربا أفريقيا دولار	أمريكا الهند - كندا دولار	باقى دول العالم دولار
اشتراك سنوى	٥٤	٢٧	٣٦	٣٦	٤٥
اشتراك ٦ شهور	٢٧	١٤	١٨	١٨	٢٣

هذا الكتاب

التحيز ، كما جاء في المعاجم ، هو الانضمام والموافقة في الرأى . وقضية التحيز في المنهج والمصطلح هي إشكالية مهمة تواجه أى دارس في الشرق والغرب والشمال والجنوب ، ولكنها تواجهنا في العالم الثالث بحدة . فنحن ننشأ في بيئة حضارية وثقافية لها نماذجها الحضارية والمعرفية المختلفة النابعة من تراثنا الحضارى ومن واقعنا التاريخي ، ولكننا نُواجَه بنماذج أخرى تحاول أن تفرض نفسها على واقعنا وعلى وجداننا وفكرنا . فمنذ نهاية القرن الثامن عشر ، ومع انتشار الإنسان الغربي التدريجي في أرجاء العالم ، من خلال التشكيل الاستعمارى الغربي ، وقيامه بتدويل نماذجه الحضارية والمعرفية الحديثة ، بدأ أيضاً ما يسمَّى «الغزو الثقافي» ، وهو محاولة الإنسان الغربي فرض نماذجه هذه على شعوب العالم . وهي نماذج أثبتت نفعها في العالم الغربي في المجالات الاقتصادية والسياسية ، ولكنها لها جوانبها المظلمة والمدمرة في مجالات أخرى . وهذه النماذج ليس لها بالضرورة علاقة قوية بواقع شعوب العالم غير الغربي (أى الغالبية العظمى لشعوب الأرض) ، وهي لهذا السبب ليست قادرة على التفاعل مع هذا الواقع أو على الإسهام في تفسيره أو تغييره ، بل ويؤدى تبنيها أحياناً إلى تدميره .


معنا..
الزمان و المكان ملك يديك
EGYPTAIR

روايات مصرية للجيب

النغمة الجميلة العذبة فى ربوع الوطن العربى من مشرقه إلى مغربه



روايات مصرية للجيب

لتفتح آفاق الثقافة والمعرفة فى عقول الأولاد والبنات

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧